مجلة العلوم التربوية والدراسات الإنسانية

أثر المنهج الاستقرائي في دراسة العقيدة والأديان

د.عرفات أحمد مقبل
أستاذ علم الأديان المشارك
قسم الدراسات الاسلامية كلية الآداب جامعة تعز

الملخص:

يسعى هذا البحث إلى إبراز دور المنهج الاستقرائي في دراسة العقيدة والأديان، كما أوضح البحث أثر هذا المنهج في دفع حجج أهل الباطل من اليهود والنصارى والمشركين، في كثير من المسائل المتعلقة بالجدل حول العقيدة، التي تؤكد صحة عقيدتنا الإسلامية التي تؤمن بالعقل والحوار المدعوم بالأدلة والبراهين الساطعة النقلية والعقلية منها، مستندين على المنهج الوصفي والمنهج التحليلي الاستقرائي في استخلاص المعلومات والنتائج.

Abstract

This research aims at highlighting the role of induction method in studying dogma and religions. The research explains the effects of this method in rejecting the excuses of Jews, Christians and atheists in so many cases related to the dogma. This method focuses on the truthfulness of Islam that believes in the role of minds and debate in giving evidences for everything . we depend on the descriptive methods and analytical induction to infer information and results.

المقدمة:

مما لا شك فيه أن الله تعالى أنعم علينا، نحن المسلمون، بعقيدة تتفق مسائلها مع الفطرة السليمة، فأخرجت من كان في ظلمات الشرك إلى نور الإيمان، وقد تسابق علماء الأمة يلتمسون البراهين عليها لتثبيتها في نفوس أتباعها من جانب، ونقض ادعاءات أعدائها من جانب آخر، وكان من تلك البراهين التي تعاضد فيها الدليلان النقلي والعقلي معًا، المنهج الاستقرائي الذي استند إلى استقراء نصوص الشرع.

ولما كان المنهج الاستقرائي أحد طرق البرهان التي تكون سبيلاً إلى التصديق بالأشياء فقد جعلناه عنوانًا نبحث فيه أثر هذا المنهج في دارسة العقيدة والأديان.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يأتي بناؤه في مقدمة ومبحثين وخاتمة، بحيث يتناول **المبحث الأول** التعريف بالمنهج الاستقرائي وبيان أقسامه وموقف العلماء منه، أما **المبحث الثاني** تناول أثر المنهج الاستقرائي في تقرير مسائل العقيدة والأديان، أما **الخاتمة** فتتضمن أهم نتائج البحث. ويمكن تناول ذلك على النحو الآتي:

المبحث الأول: التعريف بالمنهج الاستقرائي:

أولاً: التعريف بالمنهج:

جاء في معاجم اللغة العربية المناهج جمع منهج أو منهاج، والمنهج بوزن المذهب، والمنهاج الطريق الواضح البيّن، ونهج الطريق أبانه وأوضحه ونهجه أيضًا سلكه[1] ومنه قوله تعالى (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا)[2]؛ فالمنهج بوجه عام هو وسيلة محددة توصل إلى غاية معينة.

١- محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، بيروت، دار الكتاب العربي ، ط١، ١٩٧٩م، ص٦٨١.
ومحمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، (د.ت) بيروت ، ط١، ج٢، ص ٣٨٣.
٢- المائدة ٤٨.

المنهج في الاصطلاح: "أما المنهج في الاصطلاح العلمي فيعني: الطريقة التي يصل بها الإنسان إلى الحقيقة، وذلك بعد الجهد والمشقة من خلال قواعد ومبادئ عامة يعمل بها، لتوصله إلى النتيجة المطلوبة"[٣].

كما عرفه بعضهم بأنه "فن التنظيم الصحيح لسلسة من الأفكار العديدة إما من أجل الكشف عن حقيقة مجهولة لدينا، أو من أجل البرهنة على حقيقة لا يعرفها الآخرون"[٤].

وعُرّف أيضًا بأنه "خطة منظمة لعدة عمليات ذهنية أو حسية بغية الوصول إلى الكشف عن الحقيقة أو البرهنة عليها"[٥].

إذاً فالمنهج عبارة عن أسلوب منظم ذو مراحل متدرجة تقود إلى الكشف عن حقائق مجهولة من تتبع وفحص الأشياء المعلومة. وبهذا يمكن القول أن هناك اتجاهين للمناهج:

– **أحدهما:** يكشف عن الحقيقة ويسمى منهج الإختراع.

– **والثاني:** يبرهن أو يعدل عن مفاهيم سائدة ويسمى منهج التصنيف[٦].

ثانيًا: التعريف بالاستقراء:

الاستقراء في اللغة: "الاستقراء من استقرا يستقري، استقراء، واستقراه طلب إليه أن يقرأ، واستقراء الأمور تتبع أقراءها لمعرفة أحوالها وخواصها"[٧].

وهناك من يرى أنه من قرأت الشيء بمعنى جمعته، وضممت بعضه إلى بعض ليرى توافقه واختلافه، وكلا الأمرين يعني التتبع لمعرف أحوال شيء ما.

الاستقراء في الاصطلاح: "دراسة بعض الجزئيات والوصول منها إلى حكم عام ينطبق عليها وعلى غيرها"[٨].

٣- طلال المجذوب، منهج البحث وإعداده دراسة نظرية وتطبيقية، عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، ط،١٩٩٣م، ص١٧.

٤- سعد الدين السيد الصالح، البحث العلمي ومناهجه النظرية، مكتبة التابعين، القاهرة، ط٢، ١٩٩٣م، ص١٠.

٥- عبد الغني العمراني، مناهج البحث العلمي، دار الكتاب الجامعي، صنعاء ، ط١، ٢٠١١م، ، ص٦٣.

٦ - محمد زيان عمر، البحث العلمي مناهجه وتقنياته، دار الشروق،١٩٨٣م ، ص٤٨.

٧ - ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص١٢٩.

أما ابن حزم الظاهري فيقول "الاستقراء هو أن تتبع بفكرك أشياء موجودات يجمعها شيء واحد، أو جنس واحد أو يحكم فيها بحكم واحد، فتجد في كل شخص من أشخاص ذلك النوع أو في كل نوع من أنواع ذلك الجنس صفة قد لازمت كل شخص مما تحت النوع أو كل نوع تحت الجنس أو كل واحد من المحكوم فيهم"[٩].

وبالنظر في التعريفات السابقة يجد الباحث أن علماء الفقه والأصول لا يبتعد مفهوم الاستقراء عندهم عما سبق ذكره من تعريفات.

حيث يعرف الإمام الشاطبي الاستقراء بقوله: "هو تصفح جزئيات ذلك المعنى ليثبت من جهتها حكم عام إما قطعي أو ظني، وهو أمر مسلم عند أهل العلوم العقلية والنقلية، فإذا تم الاستقراء حكم به في كل حكم تقدر"[١٠].

أو هو كما يعرفه الإمام الغزالي "عبارة عن تصفح أمور جزئية ليحكم بحكمها على أمور تشتمل تلك الجزئيات"[١١]. أما مفهوم الاستقراء عند أهل الفلسفة والمنطق فلا يختلف كثيرًا عما سبق، فالاستقراء في اصطلاح المنطقيين "هو الحجة التي يستدل فيها من استقراء حكم الجزئيات على حكم كليها"[١٢].

يقول أرسطو الاستقراء بأنه قضية عامه لا تتم عن طريق الاستنباط بل عن طريق الرجوع إلى الأمثلة الجزئية التي يكمن فيها صدق تلك القضية العامة أو حصر الأمثلة الجزئية، التي تكون دليل على صدق النتيجة الكلية العامة أو هو تتبع الجزئيات للوصول إلى نتيجة كلية[١٣].

فالاستقراء يستخدم من أجل التحقق من صدق المعرفة الجزئية بالاعتماد على الملاحظة والتجربة الحسية ونتيجة لتكرار حصول الإنسان على نفس النتائج،

٨- محمود الدسوقي، منهج البحث في العلوم الإسلامية، دار الأوزاعي، بيروت، (د.ط) ، ص٨٢.

٩- على ابن أحمد ابن حزم الأندلسي، رسائل ابن حزم، تحقيق/ إحسان عباس، المؤسسة العربية، بيروت،ج٤، ط١، ١٩٨٣م، ص٢٩٦.

١٠ - إبراهيم بن موسى الغرناطي الشاطبي، الموافقات، تحقيق/ مشهور حسن سليمان، دار أبن عفان ، الرياض، ط ١٩٩٧م، ج٣، ص٢٢١.

١١ - عبد الغني العمراني، ص٧٦.

١٢- عبد رب النبي الأحمد نكري، دستور العلماء، تحقيق/حسن هاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ج١، ط١، ٢٠٠٠م ، ص٧٢.

١٣- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢٠٠٢م، ج١، ص٧٢.

فإنه يعمد إلى تكوين تعميمات ونتائج عامة، فإذ استطاع أن يحصر كل الحالات الفردية في فئة معينة وتحقق من صحتها بالخبرة المباشرة عن طريق الحواس فإنه يكون قد قام بعملية استقراء تام، وحصل على معرفة يقينية يستطيع تعميمها دون شك لكن الإنسان عادة لا يستطيع أن يحقق ذلك وإنما بملاحظة عدد من الحالات على شكل عينة ممثلة، ويستخلص منها نتيجة عامة يفترض انطباقها على بقية الحالات المشابه(١٤).

فالاستقراء إذاً يدرس بعض الجزئيات لظواهر معينة، بغية الكشف عن العلل والعلاقات التي تجمع بينها، لنصل إلى معرفة القوانين العامة، أو القضايا الكلية وبذلك تكون وظيفة الاستقراء هي تيسير الحصول على المعرفة العلمية، لأن إدراك العلل والأسباب للظواهر، ومعرفة القوانين التي تخضع لها يعني إمكانية التنبؤ بظهورها متى تحققت الشروط التي أدت إلى وجودها طبقًا للارتباط الضروري بين العلل والمعلولات، وهو ما يعبر عنه بالحتمية و الذي يُعد أساس الاستقراء.

بذاك يخلص الباحث إلى أن الاستقراء في أصله دليل مشترك بين مختلف التخصصات العلمية يرشد إلى تكوين قاعدة عامة وقانون يستمر في بيان وكشف حقائق الأمور، لهذا كان من أسس الاستقراء في العلوم العقلية مسألتا الملاحظة، والتجربة ثم وضع الفروض بعد ذلك، ويظهر تطبيق ذلك في علم العقيدة والأديان حيث يتم التركيز فيهما على تتبع الجزئيات واقتفائها ومن ثم تعميم النتيجة المتحقق منها في تلك الفروع للوصول إلى حكم كلي.

ثالثًا: أقسام الاستقراء:

إذا كان استقراء الجزئيات هو الأساس في تكوين القواعد الكلية، فإن تلك الجزئيات المستقرات تتفاوت قلة وكثرة، وقد يأتي في بعضها الاستيعاب وقد لا يأتي، ولذا أصبح من المسلم به عند العلماء أن الاستقراء ينقسم إلى قسمين:

١٤- عبد الغني العمراني، ص٧٧.

أ- الاستقراء التام:

يعرف المناطقة الاستقراء بأنه" تتبع جميع جزئيات أمر كلي ليحكم بحكمهما عليه. أو هو الاستدلال بجميع الجزئيات ليحكم به على الكل"[١٥]، وسمي بالتام لأن المستقري يعلم أن ما لم يستقريه من الجزئيات لا يمكن أن يخرج عن حكم القاعدة الكلية التي بناها باستقرائه، وذلك عندما ضمن باستقرائه القرائن الدالة على الاطراد التام، والذي يدل على أن الجزئيات التي لم تدخل تحت التتبع داخلة قطعًا تحت الحكم الكلي الذي نتج عن طريق تتبع نظائرها.

أما علماء الأصول فمنهم من سلك مسلك المناطقة والتزم بالتعريف المنطقي للاستقراء، ومنهم الإمام الغزالي (٥٠٥هـ)، والزركشي (٧٩٤هـ)، ومنهم من لم يلتزم بمسلك المناطقة، وجعل الاستقراء التام هو استقراء جميع الجزئيات باستثناء محل الاستدلال، ومن هؤلاء ابن السبكي (٧٧١هـ)[١٦].

ب- الاستقراء الناقص:

الاستقراء الناقص، هو أن تصفح جزئيات كثيرة داخلة تحت معنى كلي، حتى إذا وجدت حكمًا في تلك الجزئيات، حكم على ذلك الكلي به[١٧].

أو هو الذي تدرس فيه بعض جزئيات البحث أو أجزاء الشيء الذي هو موضوع البحث، وتعتبر فيه النماذج المدروسة أساسًا تُقاس عليه بقية الأجزاء، أو الجزئيات[١٨].

١٥- محمد علي التهانوي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ج١، ص١٧٢.

١٦- تاج الدين عبد الوهاب السبكي، متن جمع الجوامع مع شرح الجلال المحلي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م، ج٢، ص٥٣٤.

١٧- أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، معيار العلم ،تحقيق/سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٦١م، ص١٤٨.

١٨- حسين مطاوع الترتوري، المعين في كتابة البحث العلمي، دار الناشر الدولي، الرياض، ط١، ٢٠١٢م، ص٨٩.

المبحث الثاني: أثر المنهج الاستقرائي في تقرير مسائل العقيدة والأديان

من الجوانب التي يظهر فيها الاستقراء في علم العقيدة، القواعد الكلية المتعلقة بهذا العلم ذلك أن كل علم توجد فيه قواعد كلية تحكم جزئياته، وحيث تكون القواعد الكلية يكون الاستقراء موجودًا، ولذا كانت قواعد علم العقيدة منها ما بُني على الاستقراء، إلا أن الاستقراء هنا مقصور– في الغالب– على جانبين:

الجانب الأول: استقراء النصوص القرآنية حول بعض مسائل العقيدة: دلالاتها ومعانيها، واستعمالاتها؛ "وذلك كالأمثال المضروبة في القرآن الكريم التي لفت القرآن نظر العباد إليها للاعتبار بها والقياس عليها، فال تعالى: (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ)[١٩]، والأمثال المضروبة تُعتبر أقيسة عقلية واقعية برهانية يقينية"[٢٠].

الجانب الثاني: استحضار الآيات القرآنية التي تستقرئ جزئيات الكون، للبرهنة على المسألة العقدية التي تتناولها.

اولاً: التطبيقات النصية للمنهج الاستقرائي في مجال العقيدة:

المسألة لأول: وجود الله تعالى إن الإيمان بوجود الله تعالى أساس مسائل العقيدة كلِّها، وعنه تتفرع بقية المسائل العقدية التي يجب إنهاض العقل للتأمل فيها، ثم الإيمان بها.

وقد اعتمد القرآن الكريم في هذه المسألة على المنهج الاستقرائي، كونه أقرب إلى الفهم البشري العام، وأقدر على ملء وجدان الإنسان وعقله بالإيمان من البراهين الفلسفية ذات الصيغ النظرية المجردة التي أحكمت تأثيرها على عقول الفلاسفة وأفكارهم.

فإثبات وجود الله يعتمد على استقراء جزئيات الكون والموجودات عن طريق الملاحظة والتجربة، من خلال برهانين:

---

١٩ ـ الروم:٥٨.

٢٠ ـ محمد السيد الجليند، منهج السلف بين العقل والتقليد، دار قباء، القاهرة، ط١/١٩٩٩م، ص١١٣.

١- برهان القصد والحكمة والإتقان:

لا يخفى على ذي بصيرة أن الاستدلال على وجود الله تعالى، يعتمد على دليل القصد والحكمة بوصفه الدليل الذي يمثل المنهج الحقيقي للاستقراء؛ فقد استعرض القرآن الكريم أمام الإنسان الظواهر الجزئية المحيطة به ودعاه ليتدبرها، ويمحص علاقاتها وروابطها؛ ليرتقي من ذلك إلى أسبابها ومسبباتها، ولهذا غرس القرآن الكريم في المسلمين النزعة العلمية، وحضَّهم على البحث والنظر والملاحظة والتجربة، وهذه أسس الطريقة العلمية الحديثة، التي تبنَّت الاستقراء منهجًا في التفكير، وقد حدد القرآن الكريم عناصر المنهج الاستقرائي بالحس والمشاهدة، والنظر في مخلوقات الله سبحانه من ظواهر طبيعية وإنسانية واجتماعية، للإحاطة بالحقائق العلمية في آيات منها قوله تعالى:

(قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ)[٢١].

فالقرآن الكريم- إذن- يحث على الملاحظة والتدبر، ويطلب من البشر التعمق في تأمل هذه المظاهر؛ لكي يستدل على مدبرها ومنشئها.

٢- برهان الخلق والحدوث:

بالنظر في العالم وما يحتوي عليه من موجودات متنوعة، ومخلوقات عجيبة، يقودنا بالضرورة إلى الإيمان بوجود خالق له، واستحالة أن تكون هذه المخلوقات قد وُجِدَتْ من تلقاء نفسها.

وعليه فإنه للبرهنة على ذلك وتقريبه للعقول؛ يُقال: إن برهان الخلق والحدوث يستند على فرضية تغيُّر العالم، وهو أمر محسوس مشاهد، وكذلك على فرضية: أن التغير حادث وهو أمر ضروري لا يتوقف على برهان؛ "فيكون العالم حادثا، إنما علم بالاستقراء التام، ولذلك أفاد القطع واليقين"[٢٢].

---

٢١ – يونس: ١٠١.

٢٢ ـ علاء الدين المرداوي الحنبلي، التحبير شرح التحرير في أصول الفقه، ،تحقيق/عبد الرحمن الجبرين وآخرين، مكتبة الرشد، السعودية،١٤٢١ه-٢٠٠٠م، ج٨، ص٣٧٩.

المسألة الثانية: التوحيد

١- توحيد الربوبية:

لقد تنوع البرهان القرآني في آيات القران الكريم، وجاء بأكثر من أسلوب على القضية الواحدة، والآيات التالية تعرض أسلوبًا من أساليب البرهان وهو البرهان بسلسلة من الفروض الصحيحة من أجل الوصول إلى نتيجة صحيحة. قال تعالى:(قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)[٢٣].

فالآيات القرآنية هذه تعالج قضية مهمة وأساسية، هي قضية الوحدانية، التي تدور عليها مجمل مسائل العقيدة، فيبدأ البرهان عليها بمقدمات صحيحة حقيقية، وهي:" الله رب السماوات والأرض" وهو خالق كل شيء على الإطلاق هو وحده، ولإثبات ذلك لا بد من إثبات أنه لا شريك له، وأنه لا أحد في الوجود يقدر على الخلق إلا الله سبحانه وتعالى، ومن ثمَّ يترتب عليه أن تكون الآلهة التي تُعبد من دونه تعالى غير قادرة على الخلق.

وخلال الاستدلال من قضية إلى أخرى لا بد من وجود علاقة واضحة مرتبطة بحواس الإنسان ونفسيته، لذلك كانت العلاقة بين المقدمة والنتيجة على شكل مقابلة بين الأعمى والبصير، بين الهداية والنور من جهة، وبين الكفر والضلال، والظلام من جهة أخرى، كما أن علاقة الخلق هي العلاقة الرئيسة للربط بين المقدمة والنتيجة وهي علاقة ليست فقط مرتبطة بحواس الإنسان ونفسيته بل علاقة الخلق تمثل الإنسان المخلوق بكليته.

والبرهان في الآيات القرآنية لم يعتمد على مسلمات محدودة بخمس أو ست مسلمات كما في البراهين الرياضية، وإنما اعتمد على عدد كبير من المسلمات الحقيقية الواضحة: لا يستوي الأعمى والبصير- لا تستوي الظلمات مع النور- لا

٢٣- الرعد:١٦.

يقدر مخلوق على الخلق – الله رب السماوات والأرض– الآلهة الأخرى لا تضر ولا تنفع– الآلهة الأخرى مخلوقة– لا يستوي من يدرك الحقيقة والجاهل بها... وكلها فروض ومسلمات صحيحة. نصل من خلالها إلى نتيجة صحيحة تؤكد وحدانيته تعالى.

٢– توحيد الألوهية.

مما لا شك فيه أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، فالعلامة الفارقة بين من يستحق العبادة ومن لا يستحقها هي كونه خالقًا لغيره "فمن كان خالقًا لغيره فهو المعبود بحق ومن كان لا يقدر على خلق غيره فهو مخلوق محتاج، لا يصلح أن يعبد بحال" [٢٤]، وهذا الوصف لم يتحقق ولن يتحقق إلا في خالق السماوات والأرض. قال تعالى:(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).[٢٥] وقوله تعالى: (أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ)[٢٦]، وقوله تعالى: (أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ)[٢٧].

وبناءً عليه فإن الآيات السابقة قد تضمنت البرهان على أن خالق السماوات والأرض هو وحده المستحق للعبادة وهذا ما ظهر لنا بالاستقراء.

٣– توحيد الأسماء والصفات:

توحيد الأسماء والصفات وهو "إفراد الله سبحانه وتعالى بما سمى الله به نفسه ووصف به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، وذلك بإثبات ما أثبته من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكييف، ولا تمثيل"، فلابد من الإيمان بما سمى الله به نفسه ووصف به نفسه على وجه الحقيقة لا المجاز، ولكن من غير تكييف، ولا تمثيل، ويظهر لنا من خلا استقراء آيات القران الكريم عدة أمور منها:

٢٤ ـ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار عالم الفوائد، المكرمة،ط٢، ١٩٨٠م٧، ص٣٩٠ـ٣٩١.
٢٥ـ البقرة:٢١
٢٦ـ الأعراف:١٩١
٢٧ -النحل:١٧

أ- كل ما ثبت لله تعالى، لا يكون له شريكٌ فيه قال تعالى: (قُل لا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)[٢٨]، يقول الإمام القرطبي في تفسيرها: فإنه لا يجوز أن ينفي الله سبحانه وتعالى شيئًا عن الخلق ويثبته لنفسه ثم يكون له في ذلك شريك، ألا ترى إلى قوله تعالى : (قُل لا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) وقوله تعالى :(لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ)[٢٩].

فكان هذا كله مما استأثر الله بعلمه لا يشركه فيه غيره، لأنه سبحانه وتعالى إذا نفى شيئًا عن الخلق وأثبته لنفسه، فإنه لا يكون له تعالى شريكُ مطلقًا[٣٠]، ومن خلال استقراء وتتبع آيات القرآن الكريم يتبين لنا أن صفة علم الغيب نفاها الله تعالى عن الخلق جميعًا وأثبتها لنفسه وعليه تكون هذه قاعدة عظيمة دل عليها استقراء آيات القران الكريم.

ب- كل نفي وصف الرب به نفسه فهو متضمن لإثبات المدح والكمال، ومما عرف بالاستقراء أن الله سبحانه، أن الله تعالى متصف بصفات الكمال ومنزه عن صفات النقص، فالإثبات كأخباره بأنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه سميع بصير ونحو ذلك وموصوف بالنفي كما في قوله: (لا تأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ)[٣١] وقوله: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)[٣٢]، ووصفه سبحانه، بالإثبات ونفي مماثلة المخلوقات هو محض التوحيد، وقد دل الاستقراء على أن كل نفي لا يتضمن كمالًا، فإن الله لا يوصف به، لأن كل ما وصف الله به في القرآن الكريم وجد فيه الكمال، ففي قوله تعالى: (لا تأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ)[٣٣]، وقوله تعالى: (وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)[٣٤]، وذلك لكمال حياته، وهكذا فهو مطّرد في كل نفي وصف به نفسه، فدل على أن ذلك قاعدة عامة.

---

٢٨ -النمل: ٦٥.
٢٩- الأعراف: ١٨.
٣٠ - محمد الأمين الشنقيطي، م١، ص٣١٧-٣١٨.
٣١ - البقرة: ٢٥٥.
٣٢ - الشورى١١:.
٣٣ - البقرة: ٢٥٥.
٣٤ - البقرة: ٢٥٥.

جـ- القرآن الكريم كلام الله تعالى:

هذه الحروف إشارة إلى أن هذا الكتاب السماوي، بعظمته وأهميّته التي حيرت فصحاء العرب وغير العرب، وتحدت الجن والإنس في عصر الرسالة وكل العصور، يتكون من نفس الحروف المتيسرة في متناول الجميع. ومع أنّ القرآن يتكون من هذه الحروف الهجائية والكلمات المتداولة، فإن ما فيه من جمال العبارة وعمق المعنى يجعله ينفذ إلى القلب والروح، ويملأ النفس بالرضا والإعجاب، ويفرض احترامه على الأفكار والعقول، وفي القرآن من الفصاحة والبلاغة ما لا يخفى على أحد، وليس هذا مجرّد ادّعاء، فخالق الكون تحدّى بهذا الكتاب جميع الجن والإنس، ليأتوا بمثله (وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْض ظَهيرًا)[٣٥]، ولكنهم عجزوا جميعًا عن ذلك، مع أن مادة القران الكريم التي أُلفت منه آياته وسوره إنما هو من الكلام العربي الذي يستعملونه في تخاطبهم[٣٦].

وهناك ملاحظة تؤيد ما ذهبنا إليه في تفسير معنى الحروف المقطعة، وهي أن هذه الحروف المقطعة التي يتلوها مباشرة ذكر لعظمة القرآن، وهذا يدل على الارتباط بين الحروف المقطعة وعظمة القرآن، وعلى سبيل المثال نذكر الآيات التالية:

- (الر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكيم خَبِير)[٣٧].
- (طَس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَاب مُبين)[٣٨].
- (الم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)[٣٩].
- (آلمصَ كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ)[٤٠].

لا شك أن طرق البرهان على إعجاز القرآن الكريم وأنه كلام الله عديدة، منها دليل الاستقراء، فمن سور القرآن الكريم البالغ عددها مائة وأربع عشرة سورة، نجد

٣٥ - الإسراء: ٨٨.
٣٦ - عبد الرحمن حمبنكة الميداني، معارج التفكر ودقائق التدبر. دار القلم، دمشق، ط١,٢٠٠٠م ص٢٠٧.
٣٧ - هود :١
٣٨ - النمل :١
٣٩ - لقمان:١
٤٠ - الأعراف :١

أن تسعًا وعشرين سورة منها تبدأ بحروف مقطعة، وقد ثبت بالاستقراء أن جميع السور التي افتتحت بالحروف المقطعة لا تخلو من أحد أمرين:

الأول: ابتداؤها بالكلام بعد تلك الحروف عن القرآن والاحتجاج له وتقرير نزوله.

الثاني: ذكر الانتصار للقران، وبيان إعجازه، ودحض لدعاوى الكافرين الذين جادلوا فيه. وكأن الله يقول للمشركين: هذه هي الحروف، التي يتألف منها القران، وأنتم لا تستطيعون أن تأتوا بمثله(٤١).

المسألة الثالثة: مناقشة إنكار البعث:

لقد نهج القران الكريم في استدلاله على إمكان البعث وتحقق وقوعه منهجًا قويمًا يجمع بين ما فطرت عليه النفوس من الإيمان بما تشاهد وتحس ويقع منه تحت تأثير السمع والبصر، وبين ما تقرره العقول السليمة ولا يتنافى مع الفطر المستقيمة، لهذا لفت القرآن الكريم أنظار المخاطبين إلى المنهج الاستقرائي، وأمرهم بسلوكه، للوصول إلى قدرة الله عز وجل: (نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ)(٤٢).

اشتملت هذه الآيات على تداخل الاستدلالات بالاستقراء على القضية الأم، وهي البعث بعد الموت، ثم على القضايا الاستدلالية عليها، فقد سبقت هذه الآيات بمحور الموضوع (قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ)(٤٣)، ثم استقرأت أسباب الحياة جميعها، دون أن يفقد منها قسم واحد، وهي وجود الإنسان، وطعامه، وشرابه، وجاء الاستفهام محددا للاحتمالات، مع القطع وتسليم المخاطبين باستحالة إثبات ضد ما يثبته القرآن الكريم، بحيث لا يستطيع أحد أن يدعي أنه أو غيره يخلق النسمة من الإنسان، أو ينشئ النبتة من الطعام، أو ينزل قطرة من الغيث، أو يستحدث وحدة من الطاقة.

---

٤١ ـ عبد الرحمن بن صالح المحمود، شرح كتاب تيسير لمعة الاعتقاد لابن قدامة المقدسي، مدار الوطن، الرياض، ط٢، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م، ص١٩٥.

٤٢ ـ الواقعة: ٥٧

٤٣ ـ الواقعة: ٥٠

ولما كان الإقرار بأن الخالق في الابتداء هو الله تعالى، كان قادرًا على الخلق أولاً فإنه كذلك قادر على الخلق ثانيًا، ولا مجال للنظر في ذاته وصفاته تعالى وتقدس، إن لم يعترفوا به، بل يشكون ويقولون: الخلق الأول من مَنِيٍّ بحسب الطبيعة، فنقول: الْمَنِيُّ من الأمور الممكنة ولا وجود للمكن بذاته بل بالغير على ما عرف فيكون الْمَنِيُّ من القادر القاهر، وكذلك خلق الطبيعة وغيرها من الحادثات أيضًا فقال لهم: هل تشكون في أن الله خلقكم أولاً أم لا ؟ فإن قالوا: لا نشك في أنه خالقنًا، فيقال: فهل تصدقون أيضًا بخلقكم ثانيًا؟ فإم من خلقكم أولاً من لا شَيْءٍ لا يعجز أن يخلقكم ثانيًا من أجزاء هي عنده معلومة، وإن كنتم تشكون وتقولون: الخلق لا يكون إلا من مَنِيٍّ وبعد الموت لا والدة ولا مَنِيٍّ، فيقال: لهم هذا الْمَنِيُّ أنتم تخلقونه أم الله، فإن كنتم تعترفون بالله وبقدرته وإرادته وعلمه، فذلك يلزمكم القول بجواز الحشر وصحته[٤٤].

فالله تعالى وجه أنظار المنكرين للبعث إلى الاستبصار والاستنتاج؛ وذلك من خلال الآيات القرآنية التي تحضُّ على استعمال العقل من خلال النظر في الكون، فخاطب كلَّ منكرٍ لله ولقائه، خطابا دليله الكون، ومجاله السماء والأرض، ومشاهد هذا الكون وظواهره حاضرة أبدا، كي ينتقل العقل من تتبع جزئيات الكون، وأحوال الإنسان من العدم إلى الوجود ثم إلى الموت والفناء ثم إلى الإقرار والإذعان بوجود البعث والنشور في الآخرة. والقرآن الكريم مليء بالبراهين الساطعة– التي لا ينكرها إلا جاحد– على ذلك، يخاطب بها عموم الناس. ومن هذه البراهين:

١ – دليل خلق الإنسان:

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).[٤٥] وقال تعالى:(أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[٤٦].

٤٤ ـ محمد بن عمر الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج٢٩، ص٤١٥ .
٤٥ـ البقرة:٢١-٢٢.
٤٦ ـ العنكبوت:١٩-٢٠.

إن الله تعالى يبدئ الخلق تحت أعين الناس وإدراكهم وهم يرون ولا يملكون الإنكار، فإن كانوا يرون إنشاء الخلق بأعينهم فالذي أنشأه يعيده، وتتبع واستقراء صنع الله وآياته في الخلق والإنشاء في الجامد والحي سواء، والسير في الأرض، يفتح العين والقلب على المشاهد الجديدة التي لم تألفها العين ولم يملها القلب، وهي لفتة عميقة إلى حقيقة دقيقة، فالتعبير بلفظ الماضي (كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ) بعد الأمر بالسير في الأرض؛ لينظر في الأرض، ما يدل على نشأة الحياة الأولى؛ وكيف بدأ الخليقة فيها، كالحفريات التي يتتبعها العلماء اليوم؛ ليعرفوا منها خط الحياة، كيف نشأت، وكيف انتشرت، وكيف ارتقت؟ ويكون ذلك توجيها من الله للبحث عن النشأة الأولى، والاستدلال به عند معرفتها على النشأة الآخرة[٤٧].

ومن المعلوم لدى ذوي العقول أن الإيجاد الأول للإنسان– وهو أمر مشاهد – أعظم برهان على الإيجاد الثاني(أعني البعث)؛ قال تعال: (فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ)[٤٨]، وقال تعالى:" وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ)[٤٩].

ليكون بذلك نقطة الانطلاق إلى الإقرار بالبعث بعد الموت، وقد أوضح ذلك في آيات كثيرة، منها قوله تعالى:(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ)[٥٠]، وقوله تعالى:(قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ)[٥١]، وغيرها من الآيات التي تحدثت عن البعث قياسًا على النشأة الأولى[٥٢].

وبناءً عليه يكون من أنكر البعث قد تغافل عن الإيجاد الأول، كما في قوله تعالى:(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رميمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرّهٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ)، ثم رتب على ذلك نتيجة الدليل بقوله تعالى:"(فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً)[٥٣].

٤٧ ـ سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط١٩٧٢/١م،ج٥ ، ص٢٧٢٩ـ٢٧٣٠.
٤٨ ـ الطارق:٥ـ ٨.
٤٩ ـ الواقعة:٦٢.
٥٠ ـ الروم:٢٧.
٥١ ـ يس:٧٩.
٥٢ ـ منها ما ورد في:(سورة الإسراء:الآية٥١، سورة ق: الآية١٥، سورة الحج: الآية٥).
٥٣ ـ مريم:٦٨.

٢- دليل خلق السماوات والأرض

قال تعالى:(لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)[٥٤]، وقال تعالى: (أَأَنتمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا)[٥٥].

يدرك العاقل أن من قدر على خلق الأعظم فهو على غيره قادر من باب أحرى، ومعلوم أن خلق السماوات والأرض أعظم من خلق الناس، وهو أمر لا ينكره إلا مكابر، وقد أوضح الله تعالى من خلاله البرهان على البعث بعد الموت، وهو ما يؤكده قولُه تعالى:(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[٥٦]، وقوله تعالى:(أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)[٥٧]، إلى غير ذلك من الآيات التي تخاطب عقل الإنسان من خلال المشاهدات وتتبع الجزئيات.

٣- دليل إحياء الأرض بعد موتها:

إن إحياء الأرض بعد موتها، من أعظم الأدلة العقلية على البعث بعد الموت، وهو دليل يخاطب العقل من خلال أدواته المتمثلة في الحس والمشاهدة، فالكل يرى كيف يحي الله الأرض بعد موتها، وكذلك يبدئ الخلق في النبتة النامية وفي كل مالم يكن ثم يكون، الجزئيات المشاهدة في الكون، والتي يعمم من خلالها العقل على الكل الذي يشملها، وهو لب المنهج الاستقرائي.

وقد جاءت آيات القرآن الكريم ناطقة بذلك، منها قوله تعالى:(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)، وقوله تعالى:(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ

٥٤ ـ غافر:٥٧.
٥٥ ـ النازعات:٢٧.
٥٦ ـ الأحقاف ٣٣.
٥٧ ـ يس:٨١.

إِنَّـهُ عَلَـىٰ كُـلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ)، وقولـه تعـالى:(وهُوَ الَّـذِي يُرْسِـلُ الرِّيَـاحَ بُشْـرًا بَـيْنَ يَـدَيْ رَحْمَتِـهِ ۖ حتـى إِذَا أَقَلَّـتْ سَـحَابًا ثِقَـالًا سُـقْنَاهُ لِبَلَـدٍ مَّيِّـتٍ فَأَنزَلْنَـا بِـهِ الْمَـاءَ فَأَخْرَجْنَـا بِـهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)[٥٨].

وبـذلك يكـون البرهـان القرآنـي المتعلـق بالبعـث قـد احتـوى علـى المقدمـة والنتيجـة وكـذا العلاقـة المنطقيـة بينهمـا، وهـذه العلاقـة تكـون محسوسـة مـن جانـب، ومنطقيـة وسـيكولوجية مـن جانـب آخـر؛ فالإنسـان يـدركها ويعايشـها باسـتمرار حتـى تقـوم الساعة.

ثانيًا: التطبيقات النصية للمنهج الاستقرائي في مجال الأديان

رغـم جريـان العـادة فـي الاسـتدلال الاسـتقرائي بـذكر عبـارات تـدل علـى الحصـر، مثـل إمـا أن وإمـا أن، ولا ينفـك الأمـر عـن كـذا وكـذا إلا أننـا نجـد المـنهج الاسـتقرائي القرآنـي تتضـمنه عبـارات فـي قمـة البلاغـة والسـمو التعبيـري، فيلازمـه النسـق التعبيـري القرآنـي المعجـز الـذي لا نظيـر لـه فـي تعبيـرات البشـر، كمـا أن النبـي– صـلى الله عليـه وسـلم– قـد أوتـي جوامـع الكلـم، وهـي العبـارات قصـيرة المبـاني، متعـددة المعـاني، ومـن ثـم فـإني سـأورد نمـاذج مـن النصـوص الشـرعية مصـحوبة بمـا يكشـف عـن منهجيتهـا الاستقرائية، وذلك عبر المسائل التالية.

المسألة الأولى: قطع السبل أمام الجدل بالباطل

بالتأمـل فـي قـول الله تعـالى:(وَلَا تُجَـادِلْ عَـنِ الَّـذِينَ يَخْتَـانُونَ أَنْفُسَـهُمْ إِنَّ اللَّـهَ لَا يُحِـبُّ مَـنْ كَـانَ خَوَّانًـا أَثِيمًـا يَسْـتَخْفُونَ مِـنَ النَّـاسِ وَلَا يَسْـتَخْفُونَ مِـنَ اللَّـهِ وَهُـوَ مَعَهُـمْ إِذْ يُبَيِّتُـونَ مَـا لَا يَرْضَـى مِـنَ الْقَـوْلِ وَكَـانَ اللَّـهُ بِمَـا يَعْمَلُـونَ مُحِيطًـا هَـا أَنْـتُمْ هَـؤُلَاءِ جَـادَلْتُمْ عَـنْهُمْ فِـي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا فَمَـنْ يُجَـادِلُ اللَّـهَ عَـنْهُمْ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ أَمْ مَـنْ يَكُـونُ عَلَـيْهِمْ وَكِـيلًا)[٥٩]. اشـتملت هـذه الآيـات علـى إعمـال الاسـتقراء فـي دحـض الجـدل بالباطـل، وذلك من وجهين:

الوجـــه الأول: زمـن المجادلـة، فالآيـات الكريمـة حصـرت زمـن المجادلـة عـن أهـل الخيانـة ينحصـر فـي وقتـين لا ثالـث لهمـا وهمـا الـدنيا والآخـرة، وأشـارت الآيـات إلـى إمكـان الجـدل بالباطـل ووقوعـه فـي الـدنيا؛ لأنـه إقنـاعي بـين بعـض البشـر وبعـض

٥٨ ـ الأعراف:٥٧.
٥٩ ـ النساء:١٠٧.

آخرين منهم، وقد تعزب الحقائق عن المتجادلين، وقد يسلم للزيف، أو تخفي الأقنعة ما يمكن إخفاؤه منها، وهو مستحيل في الآخرة.

الوجه الثاني: دل الاستقراء على القطع باستحالة الإخفاء والتزييف في الآخرة (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ الحاقة)، حيث حصرت فرص التزييف في احتمالات، كلها مستحيلة عقلا، ونقلا، فحين يعرض العبد الخائن في الدنيا بين يدي ربه في الآخرة، لن ينبري أحد من تلقاء نفسه للدفاع عن الخائن، ولن يسمح للخائن بتوكيل غيره ليحاج عنه، فالاحتمالات العقلية ثلاثة:

١ – أن يدافع الخائن عن نفسه بالباطل، وهذا غير وارد، ولا متصور، وبين البطلان؛ لقوله تعالى: (اليوم نختم على أفواههم).

٢ – أن ينبري أحد من تلقاء نفسه، فيدافع عن الخائن، وهذا مستحيل بداهة، وإذا لم يمكن للنبي– صلى الله عليه وسلم– نفسه، فاستحالته في حق غيره من باب أولى.

٣ – أن يقوم الخائن بتوكيل غيره ليجادل بالباطل عنه، وهذا أشد استحالة من كل ما سبق؛ لأن كل من يحتمل توكيله سيعجز عن المجادلة عن نفسه؛ فكيف يتحمل التوكيل من غيره.

المسألة الثانية: الاستقراء ودعوة أهل الكتاب:

قال تعالى: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)[٦٠].

هذه دعوة لأهل الكتاب لاستخدام المنهج الاستقرائي، في حصر نقاط الخلاف، ثم وضعها تحت مجهر السبر والاختبار، حتى يتبن الرشد من الغي، وتقدير المعنى: يا أهل الكتاب تعالوا لنحصر النقاط التي لا تقبلونها منا، ها نحن نعرض عليكم معتقداتنا:

الله وحده لا شريك له إلهنا وإلهكم، وإله جميع المخلوقين، ونحن لا نعبد سواه، ما أنزل الله على رسوله فهو حق، ندين به، وعنه لا نحيد، كل ما أنزل الله

٦٠ ـ المائدة: ٥٩

على رسله السابقين فهو حق (لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) (قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا)، من اعتقد ما اعتقدنا فهو مؤمن، ومن جحد الحق فهو فاسد في معتقده، مهما كثرت أعدادهم.

وجاء الاستفهام الإنكاري ليبين الحصر فيما ذكر من الصور، ولو وجد غيرها لسارعت الفئة التي تحداها القرآن بهذا الاستقراء إلى نقض الاستقراء، بإيجاد صورة لم تدخل تحت الحصر، ولكان ذلك أسهل عليهم، فالمقارعة بالحجة أيسر بكثير من المجالدة بالسيوف، ويقول المثل: لا حاجة للأضراس في عقدة تحلها الأظافر(٦١).

يقول لأهل الكتاب: لم اتخذتم هذا الدين هزوًا ولعبًا ثم قال على سبيل التعجب: هل تجدون في هذا الدين إلا الإيمان بالله والإيمان بما أنزل على محمد صلى الله عليه والإيمان بجميع الأنبياء الذين كانوا قبل محمدا يعني أن هذا ليس مما ينقم أما الإيمان بالله فهو رأس جميع الطاعات، وأما الإيمان بمحمد وبجميع الأنبياء فهو الحق والصدق لأنه إذا كان الطريق إلى تصديق بعض الأنبياء في ادعاء الرسالة والنبوّة هو المعجز ثم رأينا أن المعجز حصل على يد محمد عليه الصلاة والسلام وجب الإقرار بكونه رسولا، فأما الإقرار بالبعض وإنكار البعض فذلك كلام متناقض ومذهب باطل فثبت أن الذي نحن عليه هو الدين الحق والطريق المستقيم فلم تنقموه علينا(٦٢).

المسألة الثالثة: تزييف أباطيل أهل الكتاب:

قال تعالى: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)(٦٣).

استعملت الآيات دليل الاستقراء في مجادلة أهل الكتاب، حيث حصرت الاحتمالات، ثم أبطلت الباطل منها، وأثبتت الحق الذي لا يصح غيره، فقد ادعى

٦١ ـ محي الدين زادة ،تفسير الإمام البيضاوي ، دار إحياء التراث العربي (د.ت) ص١٤.
٦٢ ـ محمد بن عمر الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ص٢٩.
٦٣ ـ آل عمران :٦٧ .

اليهود أن نبي الله إبراهيم–عليه السلام– كان يهوديا، في حين ادعى النصارى أنه كان نصرانيا، وقد ردت الآيات على هاتين الدعويين بأن اليهودية والنصرانية كلتيهما أحدث نزولا، من بعد إبراهيم عليه السلام، وكان اليهود يقولون: إن إبراهيم كان على ديننا والنصارى كانوا يقولون: كان إبراهيم على ديننا فأبطل الله عليهم ذلك بأن التوراة والإنجيل ما أنزلا إلا من بعده فكيف يعقل أن يكون يهوديًا أو نصرانيًا، فإن قيل: فهذا أيضًا لازم عليكم لأنكم تقولون: إن إبراهيم كان على دين الإسلام والإسلام إنما أنزل بعده بزمان طويل، فإن قلتم: إن المراد أن إبراهيم كان في أصول الدين على المذهب الذي عليه المسلمون الآن فنقول فلم لا يجوز أيضًا أن تقول اليهود: إن إبراهيم كان يهوديًا بمعنى أنه كان على الدين الذي عليه اليهود وتقول النصارى: إن إبراهيم كان نصرانيًا بمعنى أنه كان على الدين الذي عليه النصارى، فكون التوراة والإنجيل نازلين بعد إبراهيم لا ينافي كونه يهوديًا أو نصرانيًا بهذا التفسير كما إن كون القرآن نازلاً بعده لا ينافي كونه مسلمًا.

والجواب إن القرآن أخبر أن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً وليس في التوراة والإنجيل أن إبراهيم كان يهوديًا أو نصرانيًا فظهر الفرق ثم نقول: إما أن النصارى ليسوا على ملة إبراهيم فالأمر فيه ظاهر، لأن المسيح ما كان موجودًا في زمن إبراهيم فما كانت عبادته مشروعة في زمن إبراهيم لا محالة فكان الاشتغال بعبادة المسيح مخالفة لملة إبراهيم لا محالة[٦٤].

وإما أن اليهود ليسوا على ملة إبراهيم فذلك لأنه لا شك أن الله سبحانه وتعالى قد حدد تكاليف على الخلق قبل مجيء موسى–عليه السلام– ولا شك أن الموصل لتلك التكاليف إلى الخلق واحد من البشر ولا شك أن ذلك الإنسان قد كان مؤيدًا بالمعجزات وإلا لم يجب على الخلق قبول تلك التكاليف منه فإذن قد كان قبل مجيء موسى أنبياء وكانت لهم شرائع معينة فإذا جاء موسى فإما أن يقال: إنه جاء بتقرير تلك الشرائع أو بغيرهما فإن جاء بتقريرها لم يكن موسى صاحب تلك الشريعة بل كان كالفقيه المقرر لشرع من قبله واليهود لا يرضون بذلك وإن كان قد جاء بشرع آخر سوى شرع من تقدمه فقد قال بالنسخ، فثبت أنه لا بد وأن يكون دين كل الأنبياء جواز القول بالنسخ واليهود ينكرون ذلك فثبت أن اليهود ليسوا على

٦٤ ـ محمد بن عمر الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ج١٢، ص٢٩.

ملة إبراهيم فبطل قول اليهود والنصارى بأن إبراهيم كان يهوديًا أو نصرانيًا فهذا هو المراد من الآية والله أعلم(٦٥).

والآية الكريمة لا تدل فقط على تبني القرآن الكريم الحوار كمنهج من مناهج الدعوة والتعامل مع الاديان الاخرى، إنما تدل أيضاً على طبيعته التفاعلية للأديان وعلى مدى استعداده للتعايش معها بدون اعتداء او استعباد وهذا ما بشر به عقب هذه الآية الكريمة (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)(٦٦).

المسألة الرابعة: الاستقراء والاستدلال على وحدانية الله تعالى

قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)(٦٧).

هذا استدلال بالاستقراء على وحدانية الله تعالى، حيث قام نبي الله إبراهيم– عليه السلام– بحصر المعبودات المعروفة، فاستصغرها واحتقرها، وبان له ضلال من يعبدونها، ما عدا هذه الثلاثة المذكورة في الآيات، فلما اختبر كلا منها على حدته بانت له وجوه القصور فيها، وآيات كونها مسيرة مخلوقة، لا تملك لنفسها شيئا، تضمحل، وتخبو وتأفل، فما لها وللألوهية ؟!(٦٨).

المسألة الخامسة: الاستقراء ومحاجة الكفار والمشركين

قال تعالى: (فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا

٦٥ ـ المرجع السابق، ج١٢، ص٢٩.
٦٦ ـ دين محمد ، من مناهج علماء المسلمين في دراسة الأديان، حولية الجامعة الإسلامية العالمية، باكستان،عدد٣ ،١٩٩٥م ، ص٩٥.
٦٧ ـ الانعام: ٦٤
٦٨ ـ دين محمد ،من مناهج علماء المسلمين في دراسة الأديان، ص٩٣

صَادِقِينَ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ)[٦٩].

هذه الأسئلة الإنكارية لا تعدو أن تكون حصرا للاحتمالات، وتقسيما لها بين حقيقي مقبول وادعائي مزيف لا يثبت على السبر.

وهكذا ظهر الأثر الواضح للمنهج الاستقرائي في دراسة العقيدة والأديان، من حيث محاورة الكفار، وأهل الكتاب، ومن حيث استدلالات الموحدين على قضية الوحدانية. وهكذا يظهر لنا من خلال ما سبق كيف قدم القرآن الكريم للمسلمين منهج الاستقراء والسبر ولا شكك أن المسلم يجد في هذا المنهج القرآني وسيلة فعالة لتقرير موقفه وتوضيح مبدئه، وتبليغ دعوته، إنه منهج يساعد على تهيئة الظروف الصالحة للمعرفة الصحيحة والتوصل للحق.

المسألة السادسة: الاستقراء ومحاجة أهل الكتاب:

استخدم القرآن الكريم منهج الاستقراء القائم على الحج البرهانية التي **تفيد اليقين، وذلك قوله تعالى:** (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)[٧٠].

فهذه الآية اثبتت قدرة الله على خلق عيسى من غير أب قياسًا على خلق آدم من غير أب ولا وأم، فان من قدر على خلق آدم من غير أب ولا أم قادر– من باب أولى– على خلق عيسى من غير أب، فثبت يقينا بمثل هذه الحجج المطلوب، وهو إثبات أن عيسى عبد الله، لذا عدّ الإمام الشافعي هذا الطريق في الاستدلال أقوى أنواع القياس.

٦٩ – الطور: ٢٩

٧٠ – ال عمران :٥٩

الخاتمة:

– إن الاستقراء يُعد واحدًا من الأدلة التي ينبغي العناية بها، لاسيما في مجال العقيدة والأديان.

– استخدام القرآن بعض مسائل العقيدة، يؤكد صلاحيته في البرهنة على الغيبيات.

– تعاضد الأدلة النقلية والعقلية معا في البرهنة على مسائل العقيدة، يؤكد أن أصول العقيدة الإسلامية تتفق مع صرائح العقول، فضلا عن اتفاقها مع الفطرة.

– إن للمنهج الاستقرائي أثرًا كبيرًا في مجابهة عقائد أهل الكتاب ودفع حجج أهل الباطل من المشركين.

– استخدم القرآن الكريم منهج الاستقراء القائم على الحج البرهانية التي تفيد اليقين في كثير من المواضع.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- إبراهيم بن موسى الغرناطي الشاطبي، الموافقات، تحقيق/مشهور حسن سليمان، دار أبن عفان، الرياض، ط ١٩٩٧م، ج٣.
- أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، معيار العلم، تحقيق/سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٦١م، ص١٤٨.
- أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب/عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد، طبعة مجمع الملك فهد بالمدينة المنورة،١٤٢٥هـ– ٢٠٠٤م، ج٩.
- تاج الدين عبد الوهاب السبكي، متن جمع الجوامع مع شرح الجلال المحلي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م، ج٢.
- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتب العلمية، بيروت،٢٠٠٢م، ج١.
- حسين مطاوع الترتوري، المعين في كتابة البحث العلمي، دار الناشر الدولي، الرياض، ط١، ٢٠١٢م.
- دين محمد ،من مناهج علماء المسلمين في دراسة الاديان، حولية الجامعة الاسلامية العالمية، باكستان، العدد٣ ،١٩٩٥م.

- سعد الدين السيد الصالح، البحث العلمي ومناهجه النظرية، مكتبة التابعين، القاهرة، ط٢، ١٩٩٣م.
- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط١ ،١٩٧٢ م، ج٥.
- الشنقيطي محمد المختار، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط٢، ١٩٨٠م.
- طلال المجذوب، منهج البحث وإعداده دراسة نظرية وتطبيقية، عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، ط،١٩٩٣م.
- عبد الرحمن بن صالح المحمود، شرح كتاب تيسير لمعة الاعتقاد لابن قدامة المقدسي، مدار الوطن، الرياض، ط٢,١٤٣٢هـ- ٢٠١١م.
- عبد الرحمن حبنكة الميداني، معارج التفكر ودقائق التدبر، دار القلم، دمشق، ط١ ،٢٠٠٠م.
- عبد الرحمن محمد العيسوي، مناهج البحث العلمي، دار الراتب الجامعية، بيروت،١٩٩٧م.
- عبد الغني العمراني، مناهج البحث العلمي، دار الكتاب الجامعي، صنعاء، ط١، ٢٠١١م.
- عبد رب النبي الأحمد نكري، دستور العلماء أو جامع العلوم، تحقيق/حسن هاني، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ٢٠٠٠م ج١.
- علاء الدين المرداوي الحنبلي، التحبير شرح التحرير في أصول الفقه، تحقيق/عبد الرحمن الجبرين وآخرين، مكتبة الرشد،السعودية،١٤٢١هـ- ٢٠٠٠ م، ج٨.
- علي بن أحمد بن حزم الأندلسي، رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية، بيروت،ج٤، ط١، ١٩٨٣م.
- محمد السيد الجليند، منهج السلف بين العقل والتقليد، دار قباء، القاهرة، ط،١٩٩٩م.
- محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، بيروت، دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٧م

- محمد بن عمر الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت،ج٢٩.
- محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار صادر، (د.ت) بيروت، ط١، ج٢.
- محمد زيان عمر، البحث العلمي مناهجه وتقنياته، دار الشروق،١٩٨٣م.
- محمد علي التهانوي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ١٩٩٦م،ج١.
- محمود الدسوقي، منهج البحث في العلوم الإسلامية، دار الأوزاعي، بيروت، (د.ط).
- محيي الدين زادة، تفسير الامام البيضاوي، دار أحياء التراث العربي (د.ت).